

# قياد البرانس تحت مجهر سلطة الحماية الفرنسية عزوز يتخاصم مع علال والزمراني في موسم سيدي أحمد زروق

محمد الخدادي: كاتب صحفي وباحث

## تقديم النص المترجم

تطلب إخضاع قبيلة البرانس من طرف الجيش الفرنسي أزيد من عشر سنوات من المعارك الشرسة، استعمل خلالها جميع أنواع الأسلحة، واستعان بمتعاونين من أبناء البلد أحيانا، وترك خلالها عددا كبيرا من القتلى، من ضباط وضباط صف وجنود.

بعد نهاية المقاومة في أواخر 1925، قسم الجيش الفرنسي البرانس إلى أربع قيادات، حسب أرباع القبيلة، كي يسهل ضبطها: بني بوعلام، وربة، الطايفة، بني فقوص. وظل هؤلاء القياد تحت مراقبة دقيقة وممنهجة من طرف السلطة الفرنسية، كما يظهر من تقرير بتاريخ 14 شتنبر 1935، وجهه الملازم مانفيل (Lieutenant Maneville)، رئيس مكتب الشؤون الأهلية في باب المروج، إلى رئيس كتيبة أعالي واد اللبن بتيناست، حول جانب من العلاقة المتوترة بين القياد عزوز (بني فقوص) وعلال (الطايفة) والزمراني (وربة).

## النص المترجم\*

على إثر الحادث الذي وقع يوم 12 شتنبر (1935) في ضريح سيدي أحمد زروق بين قياد قبيلة البرانس، يشرفني أن أقدم لكم تقريرا عن التحقيق الذي أجرته أيام 12 و13 و14 شتنبر. لا يمكن الإحاطة بالدقة المطلوبة بأسباب حادث 12 شتنبر دون استحضار عوامل النفور والكرهية بين قياد البرانس، على خلفية المكائد والغيرة والخصومات والأحقاد الشخصية، التي يعود بعضها إلى عشر سنوات. الاثنين 9 شتنبر، وهو يوم انعقاد الشكاية (استقبال المتقاضين) عند فخذة بني فقوص، طلب القايد علال بالتلفون من القايد عزوز ان ينصب خيمته يوم الثلاثاء 10 شتنبر حول ضريح سيدي أحمد زروق بجوار خيمته. وبما أن عزوز كان منشغلا في جلسة الشكاية، فقد أبلغه عامل التلفون بعد ذلك بهذا الطلب، أمام الأشخاص الحاضرين، فما كان من قائد بني فقوص إلا أن أعلن بصوت عال أن على علال، إن كان يريد شيئا، أن يرأسه كتابة في الموضوع. كان عزوز سيئ المزاج أصلا، ولعله اعتبر أن علال يريد أن يصدر إليه أمرا، وهو لا يحب أصلا أن ينصب خيمته قرب خيمة قايد الطايفة.

بالفعل، وجه علال رسالة في الموضوع إلى عزوز، فوافق على الأمر، وتوجه مع رجاله عند الطايفة، متأخرا بأربع وعشرين ساعة، معلنا عن وصوله بإطلاق البارود من بنادق التبوريدة.

اعتبر علال هذا التأخر والهرج بمثابة قلة ذوق من طرف ضيفه، الذي لم يحضر إلا خيمته وزربيتين أو ثلاث قديمة، وفراش صغير، بينما كان في الأعوام السابقة يزين خيمته بوسائد وأفرشة وزرابي ومصابيح الإنارة.

من جهة أخرى، كان عزوز يعرف أن زميليه علال والزمراي لا يتوفران على البارود، وأن الشرف في حفل الموسم سيعود بالأساس لفرسان فخذة بني فقوص، الذين كان في حوزتهم 70 كغ من البارود. مساء يوم 11 شتنبر، كان ثلاثة قياد فقط حاضرين في خيمة القايد علال، من جملة رؤساء القبائل الذين كانوا توصلوا بدعوات للحضور. وقد اعتذر بعضهم بأدب، وأتاب البعض أقارب عنهم. فالقايد الركوك أرسل ابنه الأكبر والسي الطيب ابن أخيه، وقد وصل الاثنان مساء يوم الخميس.

أما القايد الزمراي فوصل "بيديه في جيبه" وبدون بارود، معتمدا على كرم زملائه للمشاركة في التبوريدة. فماذا حصل خلال وجبة العشاء مساء يوم 11 شتنبر، التي سمع خلالها عزوز حديثا بالفرنسية بين زميليه، والذي قد يكون أوله على وجه سيء؟

وجه القايد الزمراي لوما لعزوز، لكونه لم يستجب لدعوته إياه يوم الأحد 8 شتنبر، فغضب قايد بني فقوص، وتحجج بأنه كان منشغلا بقضايا مستعجلة، وأرسل نيابة عنه ابن أخيه "الذي يحرث بـ17 زوج، وداره عامرة بالذهب، وهو أفضل من الجميع!".

ربما كان علال مبتهجا مع نفسه بحضور هذا النزاع بين رجلين لم يكن يحبهما، لكنه وجد الجو يتكهرب بين ضيفيه، فحاول تهدئة عزوز والتغلب على أحقاد الزمراي، لكنه لم يفلح في مسعاه، وانصرف الجميع للنوم في حالة غضب. صبيحة الخميس حوالي العاشرة والنصف، في أوج الاحتفال، وصلت إلى المكان، فاستقبلني علال والزمراي ورافقاني إلى ضريح سيدي أحمد زروق، ثم إلى الخيم المنصوبة في الجهة السفلى تحته، بينما كانت سربات الخيل تبرع في أداء التبوريدة. وكان عزوز مبتهجا، إلا أن فرحه لم يدم طويلا، ذلك أن فرقة من الفراجية جلبها الزمراي شرعت، بإيعاز من منافسيه، في الغناء والرقص أمام الخيم، وغطت بذلك على الخيالة وحجبت رؤيتهم عن المتفرجين. في أول رد فعل، غادر عزوز مكانه، وأمر فرسان بني فقوص بالنزول عن الخيول، احتجاجا على تفضيل فراجية وربة عليهم.

بمجرد اطلاعي على هذا التوتر، طلبت من علال أن يصرف الفراجية مؤقتا، كي تستأنف التبوريدة. وقد تم الأمر على هذا الوجه، لكن دون أن ينتهي التوتر، إذ أطلق أحد فرسان بني فقوص البارود قبل اللحظة المناسبة، فقفز عزوز من مكانه حافي القدمين، وأسرع إلى المَحْرَك، حيث أنزل ذلك الفارس عن الحصان وهو يشتمه بصوت عال، وبأنه غير أهل للإمساك بلجام حصان، ثم غرّمه بمبلغ 2 دورو (ريالان، 10 سنتيم)، وقد اطلعت على هذه التفاصيل في اليوم الموالي فقط. أما لحظة الأحداث، فبادرت إلى التخفيف من نرفزة عزوز، بأن توجهت نحو الفرسان واثبتت على أدايمهم، وداعبت الخيول، وحاولت أن أفهم قايد بني فقوص أن إدخال الفراجية ليس موجها ضده، وأن الأهالي يحبون جدا غناءهم ورقصهم، كما أبانوا عن ذلك بالتعلق الكثيف حولهم والانصراف عن التبوريدة، وأن التنويع في وسائل الفرجة أمر إيجابي.

فهل فهم عزوز أن قرار علال بإدخال الفراجية أمام الخيم ربما لم يكن بغرض إهانتته؟ وهل فهم أنه، حتى لو كانت لديه نية سيئة، فليس هو المعني الوحيد، بما أن التبوريدة كانت تتضمن ست سربات من الخيل؟

السرية الأولى مكونة من مخازنية باب المروج وتيناست، والثانية من مخازنية كاف الغار، والثالثة من مكناسة، والرابعة من مخازنية وبعض فرسان بني لنت، ثم سربتان من بني فقوص.

ورغم دفعه بحسن النية، لم لاحظ لدى عزوز سوى أنه كان مقتنعا بوجود مؤامرة ضده من طرف زميليه، بهدف الحيلولة دون بروز فرسانه في الحفل، واستهلاك كمية باروده الذي حرص على الاحتفاظ به رغم الطلبات المتكررة من طرف الزمراني.

ارتفعت حدة التوتر في المواجهة بين الطرفين عندما اعتبر عزوز أن وربة لا حاجة لهم بالبارود أصلا، لأنهم ليسوا فرسانا جيدين، فهب الزمراني واقفا ونزع جلبابه متحديا عزوز بأن يركب مثله واقفا على السرج ويدها فوق رأسه! ولم يساير عزوز منافسه في التحدي.

ظاهريا، قد يبدو الأمر مجرد مزحة، لكن الابتسامات المرافقة لها لم تكن لتخفي الأجواء المشحونة السائدة منذ اليوم السابق.

وخلال وجبة الأكل، حضر عزوز متأخرا، ولم يأكل تقريبا شيئا، ولم ينطق بكلمة، إذ كان زميلاه يتحدثان بالفرنسية وهو لا يستطيع المشاركة في الحديث بها، فاستعنت بالترجمان لأجله يخوض في مواضيع شتى، دون أن يتحسن مزاجه، الذي تعكر أكثر لما حضرت فرقة الفراجية عند نهاية وجبة الأكل، فعملت على تقليص حصتهم إلى الحد الأدنى، واستأنف الخيالة نشاطهم إلى حين مغادرتي للضريح .

بعد ذلك بقليل وصل بعض شرفاء وازان، فرافقهم علال إلى زيارة الضريح وتناول وجبة خفيفة، بينما كان الزمراني يجمع فرقة الفراجية أمام الخيم ويطلب منهم الغناء. وكما حصل في الصباح، غادر الناس مكان التبوريدة وتحلقوا بالمئات حول الخيم للفرجة.

زعم البعض أن فراجية وربة لمحوا في بعض زروعاتهم إلى "لقرع"، والحال أن عزوز أصلع، فكان ذلك كافيا لتفجير غضبه أكثر، فزعم أن الناس يتعشرون بأوتاد خيمته، وأمر بتفكيكها ونقلها جهة المنازل، قرب محرّك الخيل.

لم يكن أثر هذا الفعل ليخفى على أحد، باستثناء، ربما، صاحبه، بينما كان الزمراني يبتسم ويضحك وهو يعاين رحيل الخيمة وصاحبها الغاضب.

وصل الخبر إلى علال بواسطة الرقاص، فنزل مسرعا عند الزمراني واستفسره عن الأمر، ثم لامه على تسببه في الحادث بإحضاره للفراجية، الذين ينزعج منهم عزوز، فرد الزمراني بانفعال وهدد بمغادرة المكان.

إلا أن علال تمكن من إبقائه، وطلب من عزوز بواسطة الشرفاء الالتحاق بهما، فلما حضر لأمه هو الآخر على تصرفه، وتمكن في الأخير من تلطيف الأجواء وتحقيق صلح بين عزوز والزمراني بواسطة الشرفاء، فتصافحا وقرنت الفاتحة، وأقسم قائد بني فقوص بأن يعيد خيمته إلى مكانها قرب خيمة علال.

حوالي الساعة الرابعة مساء، انصرف الزمراني عائدا إلى قبيلته، وبعد ذلك بقليل طلب علال من عزوز أن يفي بقسمه بإرجاع خيمته، لكنه رفض موضحا أن ذلك القسم كان سبقه قسم آخر أغلظ منه، بالأ يعيد أبدا خيمته إلى ذلك المكان.

هكذا حل الليل على وقع الخلاف والتوتر.

في اليوم الموالي 13 شنتبر، استأنفت الاحتفالات بالتبوريدة، كما حضر فرايجية بني بوغلا، وحصل فرسان الطايفة على البارود فانخرطوا في التبوريدة مع فرسان بني فقوص.

كانت خيمة عزوز مازالت في مكانها، لكنه حضر لتناول وجبة الغذاء والاستماع خصوصا لفرايجية بني بوغلا، الذين قال أحدهم في زرعة إن لقايد وربة مكانة عالية في حجم مقامه الكبير، وعلى إثر ذلك أمر علال بوقف الغناء.

يوم 14 شنتبر، فكك قايد بني فقوص خيمته وعاد إلى قبيلته دون أن يودع مضيفه قايد الطايفة.

عذ الحديث إلى كل واحد على حدة، سيعتبر كل قائد من الثلاثة أنه هو الذي على صواب والآخران مخطئان، فالزمراني يرى أن عزوز تصرف كأبله وأحمق، وأن علال كان مضيفا سيئا .

يمكن مؤاخذة عزوز لعدم تصرفه كضيف، فهل يكون علال أراد ان يمزح معه، إلا أن مزاحه خرج عن إطاره؟

والزمراني شخص ذكي، فقد أخذ على عزوز عدم استجابته حسب الأصول لدعوة علال له الأحد الماضي، وهو يعرف أن قدرته على الفهم محدودة، وأن أبسط شيء يمكن أن يخرج عن طوره، وبالتالي، ألن يكون قد سعى إلى الإيقاع بين الاثنين؟

كان يُفترض أن يكتفي الزمراني بتدخلي يوم الخميس مع الخيالة، فهو لا يتوفر على بارود ولا يهمله فرسان عزوز، إلا انه استغل غياب علال وحماس الأهالي لسماع الغناء، فأدخل الفرايجية أثناء التبوريدة، ما أدى إلى تلك الفوضى. أما علال فيرى أن الزمراني شخص مخادع، جاء لإشعال النار في مجاله، وقد نجح في ذلك وعاد إلى حال سبيله. كما يعتبر أن عزوز تصرف بحمق لما انساق مع لعبة الزمراني.

ربما لم يتصرف الزمراني يوم الخميس كما يجب من طرف ضيف، عندما خاض في حديث بالفرنسية بمتعة ظاهرة، وهو يقول لعزوز من حين لآخر "كول كول". وإذا لم يكن متواطئا مع علال (وهذا أمر مستبعد)، فهو ليس مسؤولا عن مغادرة عزوز وعن الفصل بين الخيم. لقد فعل كل ما في وسعه لإصلاح الأمور دون أن يتوفق أمام عداة زميله.

أما عزوز فموقفه من الزمراني شبيه بموقف جاره قائد الطايفة، الذي يرى أن هذا الشاوش "يأكل جميع الناس". إن عزوز شخص ذكي ولديه انفعال مرضي، إذ لم يحافظ على هدوئه خلال الحفل الذي يحقق له متعة كبيرة، فلم يكن يهمله إلا خيوله وشخصه، وكل ما تم وقيل، أو يفترض أنه قيل، خارج ذلك، كان شتما بالنسبة إليه. إنه لا يعرف الفرنسية، ويعاني من ذلك كثيرا أمام زميليه اللذين يتحدثان بها، ويقوم أحيانا بتأويلات خاطئة.

هكذا تكدر حفل كان واعد بسبب الخلافات بين قياد البرانس، وعاد كل واحد منهم إلى بلاده وهو مقتنع بأنه قام بدوره كما يجب، ومقتنع كذلك بسوء نية جاره تجاهه، ويتحین الفرصة للرد على ذلك.

ومن أجل ترطيب الأجواء بين قياد البرانس، قد يكون مفيدا جمع رؤساء القبائل والفخذات في الدائرة (تيناست) وأن توجه إليهم الملاحظات التي يستحقونها .

-----

\* مصدر الوثيقة:

Ministère de la défense. Etat major de l'armée de terre. Service historique. Répertoire des Archives du Maroc. Série 3H (1877-1960) fascicule 1.VINCENNE- FRANCE.